قطرة مطر

ريتا عودة*

لكلِّ نهايةٍ بدايةٌ ما. وبدايتي أنا كانت حين قررتُ أن أكونَ متفردةً في هطولي، فلا أتبدّد عبثًا.

نظرتُ إلى الأرض أبحث عن مكانٍ أهطل فيه.

أبصرتُ مجموعةً من الأطفال يتقافزون حُفاةً فوق بقع الماء، يطاردون كرةً، ويُردِّدونَ بفرح: «طاح المطر على الطين، الله يسلِّمْ فلسطين!»

وأبصرتُ كهلاً قَرْفَصَ قريبًا منهم يَرْقب الطيورَ الصغيرةَ في السماء، ويقول في سرّه: «متى تتلوَّن أحلامُ البؤساء؟!» حطّت الكرةُ فوق أنفه، فاستيقظ على الأطفال وهم يسقطون حول عنقه بحميمية، كلٌّ يَقْطف من وجنته قبلةَ الصباح.

❖ ❖ ❖

عَبَرْتُ بين الأزقة المُوحلة وتسمّرتُ قرب غرفة طبيب نحيل رأيتُه يرتدي ثوبَ البرّ.

كان يَرْقب يَدَي امرأةٍ عجوزٍ تحاول فكّ صُرّة لتغوص داخلها وتَحْفن منها ملءَ راحتها قطعًا نقديةً صغيرةً تضعها على المنضدة ثمنًا للكشف.

ـ ضُبّي نقودك، يمّا. الدنيا لسّه بخير!

تقع العجوز، بثوبها الأسود المُبرقش بالقُطَبِ الفلسطينيةِ الكالحة، فوق عنق الشاب تُقبّله وتدعو له بطول العمر ووافرِ الصحة، فيسقط منديلُها الأبيض فوق كتفه.

وأواصل أنا المسير.

❖ ❖ ❖

رأيتُ فتاةً تفتح نافذةً، فاقتربتُ.

عادت إلى الداخل تسير بخطوات متلعثمة، فأدركتُ أنّها مكفوفة. جلستْ قُرب المرأة العجوز تقول لها: «يمّا، جاي على بالي اليوم طبخة فريكة.»

تسيرُ العجوز نحو معطفها تتحسس الجيبَ، فلا تجد سوى بضع ورقات نقدية، مع أنّ الشهر ما زال في أوّله. لكنّها تقول لسعدة: «تعالي نَنَمْ قليلاً، وربّك يفرجها.»

عندما تستيقظ تعثر على دجاجة في المطبخ، فلا تَشْغل بالَها بمصدر رزقها، بل تَشْرع في إعداد الطعام. وبينما هي منهمكة في عملها، يصل ابنُها، فيخبرها أنّ أحد الرجال زار المشفى حيث يعمل هو مساعدًا، وفي يده بعضُ الدجاجات للطبيب الذي استأصل الرصاصةَ من أحشائه دون أن يتوفر له ثمنُ العلاج، وحين مرّ بسعد رقّ قلبُه وأعطاه دجاجة.

سقطت الأمُ على عنق ابنها، فسقطتْ ضفيرتُها الشائبة فوق عنقه. طوّقتْه كالحبل السرّيّ، وقبّلتْه بفرح وهي تدعو له بوافر الصحة.

❖ ❖ ❖

* كاتبة فلسطينية.

بانتشاء، تابعتُ رحلتي.
رأيتُ امرأةً عجوزًا تكاد بشرتُها تكون كقشرة برتقالة جافة.
كانت قد قرفصتْ فوق الأرض، تعلو الهتافاتُ من حولها، كلٌّ يستنكر هدمَ منزلها على طريقته.
أما هي فقد كانت تراقب شجرةَ الصبّار، تَعْجب للغبار الذي تكاثف فوق عروقها من حجارة المنزل التي تناثرتْ في كل مكان، ومعها تبعثرتْ أحلامُها، ذاكرتُها، أمانيها.
كانت تتمنى ولو عَبرةً واحدةً تجفِّف حرقةَ قلبها.
نظرتْ إلى فوق، من حيث يأتي عونُها.
لمحتْ عصافيرَ كثيرةً، بعيدةً، بعيدة.
تنهدتْ بصمت.
ـ آآآخ.. كيف تحطّ العصافير فوق طبق القلب إذا كانت الأرض غارقةً في الطوفان؟!
بغتةً، التقتْ نظراتُنا. جاشتْ عواطفي نحو هذه المرأة / الزيتونة.
قررتُ أن أهبط إليها.
قفزتُ داخلَ عينها، وهنالك بدأتُ أتضاعف بصمْت.
فجأةً، تملّكتِ المرأةَ رغبةٌ جامحةٌ في البكاء
وهكذا، هطلتُ عن طيبِ خاطرٍ فوق درب آلامها.

فلسطين

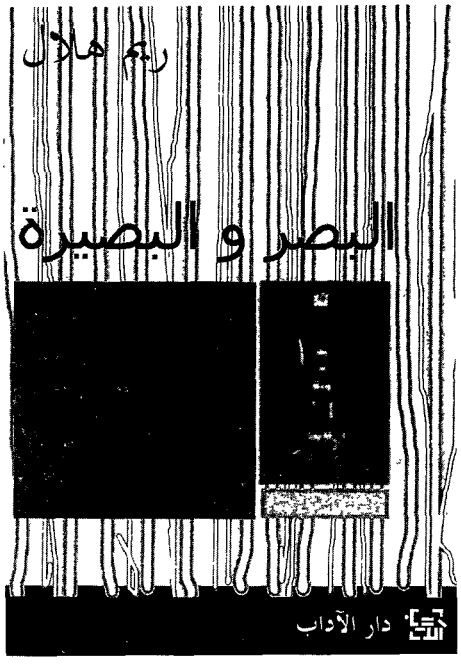

يحكي هذا الكتاب عن تجربة المؤلفة الكفيفة البصر منذ ميلادها حتى حصولها على درجة الدكتوراه، وما تخلّل هاتيْن المرحلتيْن من آلام وأفراح قد تمثّل في عمقها وحرارتها ونزعتها الإنسانيّة ظلاً لجوهر الحياة. كل ذلك في إطار سرد روائيّ شفاف.

وُلدت المؤلّفة في اللاذقيّة وتعمل الآن مدرِّسة للنقد العربيّ الحديث في كليّة الآداب، قسم اللغة العربيّة بجامعة تشرين.